هموم شعرية

أن ينتمي الشعر العربي إلى زمنه الراهن

خالد بن صالح

تقف هذه الزاوية مع شاعر عربي في علاقته مع قارئه وخصوصيات صنعته، لا سيما واقع نشر الشعر العربي المعاصر ومقروئيته. «كثيراً ما يتعامل القارئ العربي مع القصيدة تعامُلاً طارئاً، وليس في استمراريتها او سياقها كمشروع ابداعي»، يقول الشاعر الجزائري

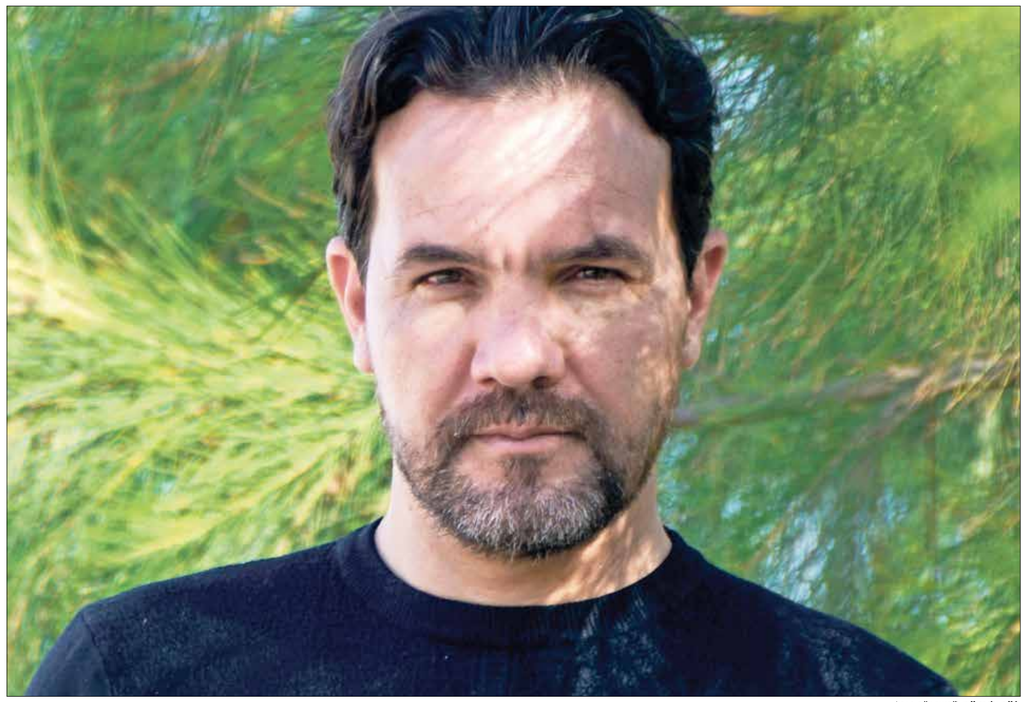

خالد بن صالح (العربي الجديد)

بوسعادة (الجزائر) ـ **العربي الجديد**

بطاقة

شاعر جزائري من مواليد مدينة بوسعادة عام 1979 يعمل في الصحافة والنشر. صدرت له خمسُ مجموعات شعرية؛ هي: «سعال ملائكة متعبين» (2010)، و«مائة وعشرون متراً عن البيت» (2012)، و«الرقص بأطراف مستعارة» (2016)، و«يوميات رجُل افريقي يرتدي قميصاً مُزهّرا ويُدخّن M8 في زمن الثورة» (2019)، الذي صدر بالإيطالية العام الماضي بتوقيع المترجمة الإيطالية يولاندة غـــواردي، و«مرثية الأبطال الخارقين» (2023).

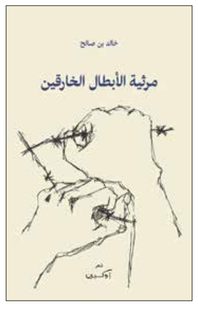

■ ما الهاجس الذي يشغلك هذه الأيام في ظلّ ما يجري من عدوانٍ إبادةٍ على غزّة؟

كتبتُ، في بداية العدوان على غزّة، نصّاً طويلاً بعنوان «الشهداء يعودون كلّ أسبوع». تردّدتُ في العنوان الذي هو محاكاة لعنوان للروائي الجزائري الراحل الطاهر وطار «الشهداء يعودون هذا الأسبوع»؛ ذلك أنّ كرونولوجيا الأحداث المُرعبة كانت تُنبئ، في أسبوعها الأوّل، بالكارثة الإنسانية التي تجاوزت الآن 320 يوماً. لم يعُد هناك جوابٌ عن سؤال متى تتوقّف هذه الإبادة؟ ورغم كلّ الألم والتأمل، فإنّ على حافة كلّ شيء يمكن أن يستجدّ كلّ شيء. هناك شعبٌ يقاوم ويضحّي من أجل أرضه وحرّيته، في ظلّ تفكّك وانهيار الكثير من السرديات والمقولات «الإنسانية»، عربياً وغربياً، والتي لا تنفكّ تخون ذاتها ومبادئها كلّ يوم.

■ من هو قارئك؟ وهل تعتبر نفسك شاعراً مقروءاً؟

قارئي الأوّل مجهول دائماً، لا أستحضره أثناء الكتابة ولا أفكّر فيه بعدها، لكن تجمعنا لحظةُ اكتشاف فارقة؛ تلك التي يُمسك فيها بكتابي ويقرأ ويغرق قبل أن يمضي به إلى البيت. يحدث أن يكون شخصاً واحداً أو ربّما أكثر. لعلّه الحظّ ما يجعل مثلاً نُسَخ أحد كتبي تنفد في أقلّ من ثلاث سنوات، والأكيد أنّه الحظّ ما يجعل قلّة قليلة من الأصدقاء، بعد أخي وزوجتي، قرّائي الدائمين ونقّادي الصارمين الذين لا أتردّد في إزعاجهم بقصيدة جديدة، أو كتاب جديد لا أعرف إن كان سيجد له قارئاً مجهولاً آخر.

■ كيف هي علاقتك مع الناشر، هل لديك ناشر وهل هو الناشر الذي تحلم به لشعرك؟

لعلّني كنتُ محظوظاً في علاقتي مع الناشر منذ كتابي الأوّل. أعتقد أنّ النشر هو، قبل كلّ شيء، اتفاق أدبي وفكري وإنساني على الرؤى والتطلّعات. نشرتُ كتابين مع منشورات «الاختلاف» الجزائرية وكتابين مع «منشورات المتوسط»، تُرجم احدهما إلى الإيطالية. واليوم ليس أوفر حظّاً مني كشاعر أن أحظى بناشر كان أوّل من احتضن قصائدي ونصوصي الأولى، منذ 18 عاماً، وأنشر معه كتبي اليوم ومستقبلاً. يُحيل هذا الكلام إلى صداقتي المديدة مع الروائي السوري زياد عبدالله، مؤسّس ومدير مجلّة، ودار «أوكسجين».

■ كيف تنظر إلى النشر في المجلّات والجرائد والمواقع؟

أنا مُقلٌّ في الكتابة الشعرية، وقصائدي لا أنشرها عادةً إلا في مجلّة «أوكسجين» الثقافية كموقع الكتروني، أو غالباً ككتاب ورقي يصدر من دون أن أكون قد نشرتُ منه نصّاً واحداً من قبل. لا أدري لماذا هذا التواري الذي يبدو لي مُحبّباً ولذيذاً في لعبة الغياب والحضور. ربّما لأنّي أميل إلى قراءة الأدب ورقياً - إن لم تكن هناك حاجة مُلحّة أو عمل يتطلّب غير ذلك - واختزل تلك المتعة التي أشعر بها حين أقرأ قصيدة دُهشني أوّل مرّة وأنا أقلّب صفحات ديوان ما. رغم هذا، لا شكّ أنّ النصّ الجيّد يجد مكانه أينما نُشر، سواء لحظة نشره أو لاحقاً.

■ هل تنشر شعرك على وسائل التواصل الاجتماعي، وكيف ترى تأثير ذلك في كتابتك أو كتابة زملائك ممن ينشرون شعرهم على وسائل التواصل؟

قليلاً جدّاً إن لم يكن نادراً. ولكن مع هذه القلّة في النشر على وسائل التواصل الاجتماعي، أشعر أنّ هناك دائماً قارئاً خفيّ، يظهر في هذا لحظات ويفاجئك برأيه في كتابتك أو كتابة شعراء آخرين ينشرون قصائدهم لتُناقش بحرّية وتختلف حولها الآراء، خصوصاً أنّ هذا الفضاء المفتوح يُمثّل هامشاً يسع كلّ من هُم خارج المتن ومؤسّساته المُغلقة. عدا ذلك، تُسهم هذه المواقع، في الغالب، في تضخيم الأنا أو تحقيرها بكلّ ما هو ليس حقيقياً.

■ من هو قارئ الشعر العربي اليوم في رأيك؟

قلّة من الشعراء، وقلّة من القرّاء المهتمين بالشعر أساساً. يكاد يكون الشعر العربي اليوم جمهور، وأتحدّث هنا عن قصيدة النثر بالذات، التي غالباً ما تحيا في الإيطالية. واليوم ليس أوفر حظّاً مني كشاعر أن أحظى بناشر كان أوّل من احتضن قصائدي ونصوصي الأولى، منذ 18 عاماً، وأنشر معه كتبي اليوم ومستقبلاً. يُحيل هذا الكلام إلى صداقتي المديدة مع الروائي السوري زياد عبدالله، مؤسّس ومدير مجلّة، ودار «أوكسجين».

> ثمّة شعبٌ يقاوم ويضحّي في ظلّ انهيار الكثير من المقولات

> نادراً ما تناغمت التجارب العالمية مع ذائقة القارئ العربي

■ ما هي مزايا الشعر العربي الأساسية وما هي نقاط ضعفه؟

يحتاج هذا السؤال إلى دراسات ونقاشات واسعة، ولا تليق به الإجابة في أسطر، لكن من وجهة نظر خاصّة، نحن عندما نقول شعراً عربياً، فالحديث هنا عن اللغة، وهي - أي العربية - تمتلك مزايا عديدة تجعلها تستفيد من أدوات الحداثة وتنخرط في مسار التجريب والإبداع والحرّية، بما يجعل القصيدة «العربية» تنطلق من بيئتها ومحلّيتها وهموم الشاعر الذّاتية نحو أفق عالمي أوسع. والعكس هو كلّ ما يقوّض مزايا وإمكانات اللغة نكراناً أو تقديساً.

■ شاعر عربي تعتقد أن من المهم استعادته الآن؟

الشاعر المتشائم المستبصر أبو العلاء المعري، الآن ودائماً.

■ ما الذي تتمناه للشعر العربي؟

أن يخرج من أوهام الهوية والأصالة والارتباط العضوي بالماضي... أن ينتصر للذاكرة الشعرية بتمثّلها وإعادة صياغتها وفق متطلّبات العصر... أن يُفكّك الواقع ويُعيد تركيبه من جديد برؤىً تجريبية وإبداعية لا تختلف فيها الهموم الصغيرة لحياتنا عن ماسينا الكبرى، وربّما باختصار أن ينتمي الشعر العربي إلى زمنه الراهن، زمن الانحدار الأعظم نحو الهاوية والمضيّ عبر أقصر طريق إلى الجحيم.

إضاءة

أوّل من ترجم «دون كيخوته» إلى العربية

تنازُع الترجمات

لم تكن الترجمة بمعزل عن قضية السبق، ولا يفتا البحث في هذا المجال يطالعنا بالجديد، في الثقافة الغربية مثلما في نظيرتها العربية

مزوار الإدريسي

اشتُهر النّقاد العرب باجتهادهم في رد المستَحدَث من المعاني الواردة في شعرهم ونثرهم إلى مُفترَعيها الأوائل، كما عُرفوا بتفنّنهم في إيجاد المصطلح النّقديّ للصّفة التعريفية لكل حال، كقولهم في باب الشعر، مثلاً، إنّ امرأ القيس هو أوّل من وقف واستوقف وبكى واستبكى، وإنه هو مُقصد القصيد، وكانوا يُردّدون إن الشاعر الفلاني في قوله كذا ينظُر إلى البيت الفلاني، أو ياخذ من فلان، أو يسرق منه أو يُغير عليه، إلخ.

ويَصدُق الكلام أعلاه على التأليف الأدبي أيضاً، وهو ما اهتم النُّقاد برصده وتعقّبه في كل فن من الفنون، وقد أبدعوا في ذلك بما عُهد فيهم من بحث دقيق، فاستطاعوا بمهارة لافتة النّبش في حِينيالوجيا التآليف، ليُؤكّدوا أن الكُتب تتناسل من بعضها، مع التنويه بالمُجترح الأوّل لكل فن أو علم، ولو أنه لا يُمكن التسليم أبداً بأن هناك مؤسّساً أوّل، وكانّ لا شيءَ كان قبلَه، فالبدايات الجنينية تكون ضرورة مثلما أنّ التلال والهضاب تكون مقدّمة لظهور القمم العالية.

ويتذكّر القارئ العربي أنّ كتاب طه حسين «في الشعر الجاهلي»، الذي أحدث باسئلته المعرفية الدقيقة انعطافاً في التفكير النقدي العربي، قد انشغل بعضُ من منتقديه بادعائهم عدَمَ تقديمه أيّ فائدة إلى الثقافة العربية، لأن أسئلته النقدية ليست بالجديدة على النقد العربي، فقد سبق لها أنْ طُرحتْ قديما من قِبل ابن سلام الجمحي أو آخرين، حتى لكأن هؤلاء المنتقدين يختصرون الإفادة وما يقتضي الإشادة بأنْ تكون القول الأوّل في أيّ باب من الأبواب، وليس في تقديم الجدّة التي تَصدُر عن وجهة نظر مُختلفة بُناءً على منهجية علمية دقيقة.

ولا يخفى أنّ قضية السبق إلى فن من الفنون هي من القضايا التي لم تكن الترجمة بمعزل عنها؛ ولا يفتأ البحث في هذا المجال يُطالعنا بالجديد، في الثّقافة الغربية مثلما في نظيرتها العربية، والواقع أن التنازُع في هذا الشأن ليس بين المترجمين بالطبع، بل بين النقاد الباحثين، الذين يرغبون في الوصول إلى حقائق ومعطيات أصْدق. يكشف لنا العالَم الناطق بالإسبانية مُعطيات مهمة بخصوص ترجمة أعمال فرانز كافكا إلى اللغة الإسبانية؛ لقد اكتشف متكلّمو الإسبانية رواية «المَسخ» لكافكا في فترة متقاربة، وقد اطّلعهم عليه في لغتهم كلٌّ من بورخيس، وراموسْ ماريا طنْريُرو ومازغاريتا بَلْكنْ، وكانت الإسبانية بذلك أسبَق من الإنكليزية والفرنسية والإيطالية في ترجمة كافكا إليها، وحدث ذلك على صفحات «مجلة الغرب»، لصاحبها الفيلسوف الإسباني أورتيغا إي غاسيت، سنة 1925.

لقد أنكر فرَانْدُو شوزْنطنُو، الروائي والصديق القريب كثيراً من الأرجنتيني بورخيس، أن يكون الأخير قد ترجم «المسخ»، ولم ينفِ عنه أنه ترجم مقتطفات من أعمال الروائي التشيكي، وبقي الاشتباه في أمر الإسباني زَمْ. طنْريُرو، بعد أن قدّم كثير من الباحثين ما يُؤكّد اسبقيّته في ترجمة الرواية إلى الإسبانية، لكنّ دراسات دقيقة وعميقة قامت بها المتخصّصة في الأدب الألماني كْريستينا بنطانْيا ابتداء من 1999، أوْقفَتْها على رسالةٍ كانت قد بعثَتْها مارْغاريتا بَلْكنْ من منفاها المكسيكي إلى باحث إسباني سنة 1964، أكّدتْ فيها أنها ترجمت لكافكا عن الألمانية في «مجلة الغرب»، وبذلك ينتهي التنازع في شأن أوّل من ترجم كافكا إلى الإسبانية.

ونكتفي، في عالمنا العربي، باستحضار التنازع بين الباحثين في إثبات أوّل من ترجَم رواية ثربانتس «دون كيخوته دي لا منشا» إلى العربية. لقد روّج الأشقاء العرب في الشرق العربي بأن الأديب عبد العزيز الأهواني هو أوّل من ترجم عمل ثربانتس الرائد سنة 1957، لكنّ ترجمته هي في حكم العمل المفقود، ثم تبعه عبد الرحمن بدوي بترجمة صدرت 1965، وتلت هاتين الترجمتين أخريَان: واحدة لرفعت عطفة 2021، وأخرى لسليمان العطار 2002، هذا في المشرق العربي.

أما في المغرب العربي، وفي تطوان تحديداً، فإن البحث لم ينتبه إلى ترجمتَيْن سابقتَيْن على الترجمات المشرقية السابقة، الأولى هي في حكم العمل المفقود، وجاءت بمبادرة من مسؤول عن العلاقات مع العالم العربي لدى منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة هو فؤاد إفرام البستاني، الذي كلّف المترجمَيْن نايب أبو ملهم وموسى عبود سنة 1948، وكانا كلاهما يشتغلان عند إدارة الاستعمار الإسباني، والثانية أنجز قسطاً وفيراً منها الأديبُ المتصوف التهامي الوزاني بنْ 1951-1966، ونشرها في جريدته «الريف»، ولم تخرج إلى النور، لكنّ نسخة إلكترونية من مخطوطتها موجودة.

هكذا يكون التنازُع بين الترجمات في السبق الزمني واقعاً لا يرتفع، يَشهدُه الإبداع والتأليف والترجمة، وبذلك تكون الترجمة عن حقّ جنساً أدبياً على حدة، وتكون قضاياها من قضاياه.

(أكاديمي ومترجم من المغرب)

> كانت الإسبانية أسبَق من الإنكليزية والفرنسية في ترجمة كافكا

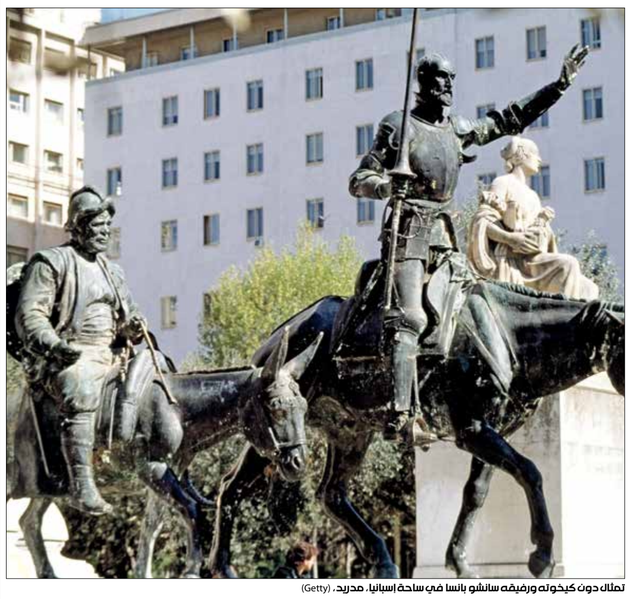

تمثال دون كيخوته ورفيقه سانشو بانسا في ساحة إسبانيا، مدريد. (Getty)

معرض

سماءٌ لم تلوّثها الانفجارات والحرائق والنفايات

عبق القرميد حكايات البيوت اللبنانية

في معرض التشكيلي اللبناني وائل حمادة في بيروت، تمتزج موضوعات الهوية والتراث والذاكرة بقضايا تلامس الحياة الراهنة، مقدماً مزيجاً من الجوانب الملموسة وغير الملموسة داخل المجتمع اللبناني

بيروت ـ **العربي الجديد**

يعيش التشكيلي اللبناني وائل حمادة في الإمارات. حياته تنقّل مستمرّ بين وطنه الأم وأماكن متعدّدة. وهذا التنقّل أثّر تأثيراً لافتاً على لوحاته وأسلوبه الفنّي. لهذا، تهيمن موضوعات الاستقرار والتمسّك بالأرض والتقاليد والتراث اللبناني على معظم أعماله. معرض «عبق القرميد»، الذي يحتضنه «غاليري مايا آرت سبيس» ببيروت هذا الشهر، يعكس جانباً من ذلك؛ حيث تمتزج في لوحاته موضوعات الهوية والتراث مع قضايا تلامس الحياة الراهنة.

يقدّم حمادة في لوحات مختلفة الحجم مزيجاً من الجوانب الملموسة وغير الملموسة داخل المجتمع اللبناني. يتعمّق التشكيلي في ثيمات هوية الطفولة والذكريات التي تتقدّم في العمر. تحضر في كلّ لوحة نكهةٌ حميميةٌ خاصة: تجربة الفنّان ورحلته الشخصية وتأمّلاته.

هذه النكهة الحميمية المنبعثة من التجربة الذاتية، تمتزج بعبق القرميد الذي يغطّي سطوح البيوت والمدن والقرى في لوحاته. والنتيجة رحلة فنّية يختلط فيها العام والخاص، الجماعي والذّاتي، وما بينهما من رغبة في كشف تعقيدات الحياة عن طريق التأمّل في التجربة الشخصية وفي تجارب الأشخاص الذين يتحرّكون في فضاء اللوحات.

يرافق هذا التمازج في العبق الذي يلامس حاسة الشم، تمازجٌ آخر في اللون يلامس حاسّة النظر: أحمر الطرابيش التي تلبسها الشخصيات التراثية والذي يمتزج مع اللون القرميدي لسطوح البيوت والقرى؛ أزرق السماء المشبعة بالأكسجين، والتي لا يخنق ابعادها وأفاقها الغبار أو الدخان المتصاعد من الانفجارات والغبار والحرائق والنفايات والمصانع وغيرها من ملوّثات الحياة الحديثة؛ رمادي الأبنية والبيوت وغيرها من الألوان التي ترسم فضاءات القرى الجميلة وشوارعها بالبساتهم التقليدية، وفلّاحيها وهُم يحاولون الحفاظ على تراثهم وهويتهم وتحرير انفسهم من التكلّف والزيف.

هذه الأجواء الفرائحية نوعاً ما، تمتزج أيضاً بموضوعات قلقة راهنة تنفتح على تفسيرات قد تكون ملتبسة المعنى، ولا سيما تلك اللوحات التي تبدو فيها الشخصيات معلّقة في الهواء تنتظر السقوط. هنا قد يسأل الزائر: هل هو انتحارٌ جماعي؟ وهذا القرح هل انتهى بسبب الأزمات والحروب والانفجارات التي يشهدها لبنان؟ وذلك المركب الصغير الممثلئ بتعقيدات الحياة وصعوباتها هل سيصل إلى برّ الأمان؟ وهذا الفلّاح المُهاجر الذي يحمل معه حياته وذكرياته أرضه، إلى أيّ أرض يسافر ومتى سيعود؟

لا يجيب وائل حمادة ولا شخصيّاته عن هذه الأسئلة. كلّ ما يفعله هو استثمار الشخصيّات والألوان وعناصر الطبيعة من شجرة أو نهر أو غيمةٍ أو موجة كي تنفّذ مهمّات محددة: أن تروي حكاية أو تزكية (بلغة الفنان) كلّ بيت قرميدي في لبنان.

> يستقي وائل حمادة لوحات معرضه من ذاكرة البيوت القرميدية في لبنان

من المعرض

فعاليات

الطفل والكتاب.. كيف نحفّزه؟ عنوان حوارية تُقيمها مكتبة عبد الحميد شومان في فرعها بجبل الأشرفية (عمّان) عند الثانية من بعد ظُهر غدٍ، وتستضيف فيها الكاتبة **فداء الزمر**، التي تحاورها الكاتبة **هيا صالح** عن كيفيات دفع الأطفال إلى الانخراط في فعل القراءة في زمن تكثر فيه الوسائل التكنولوجية التي تُبعد الأطفال عن الكتب.

حتى الخامس عشر من ايلول/ سبتمبر المقبل، يستضيف «البيت العربي» في مدريد معرضاً فوتوغرافياً جماعياً بعنوان **مناظر عابرة للشمس**. يُضيء المعرض تجارب ثمانية مصوّرين فوتوغرافيّين عرب من مصر والمغرب والسودان واليمن والاردن وسورية، تتناول اعمالهم الهجرة واللجوء بسبب الاقتصاد والحروب والاضطهاد، وتبعاتها على الانسان والطبيعة، إضافة إلى التغيّرات المناخية.

هيئة العيشة هيك عنوان المسرحية التي تُعرض على خشبة مسرح «دوار الشمس» في بيروت، ابتداء من العاشر من ايلول/ سبتمبر المقبل وحتى الثاني والعشرين منه. العمل من كتابة واخراج وأداء **فؤاد يمين**، ويتناول مواضيع تتعلّق بالطفولة والعائلة والسلطة الدينية، مستوحاة من التجارب الشخصية والبيئة المحيطة.

رسم الأزياء عنوان ورشة يستضيفها متحف الفن الإسلامي في الدوحة، بين الاول والثالث من ايلول/ سبتمبر المقبل. تقدّم الورشة **مريم الماجد**، وتهدف الى تعليم المشاركين اساسيات رسم الأزياء وتقنيات عرض المواد المختلفة باستخدام اقلام التحديد، وانشاء تصميمهم الخاص بهم من وحي مقتنيات المتحف.

تخصّص «العربي الجديد» صفحة «نصوص الحياة والحرب من غزّة» لشعراء وروائيين ومسرحيين وفنانين من قطاع غزة، كي يعبّروا عن تفاصيل الحياة اليومية تحت القصف الإسرائيلي

نصوص الحياة والحرب من غزّة

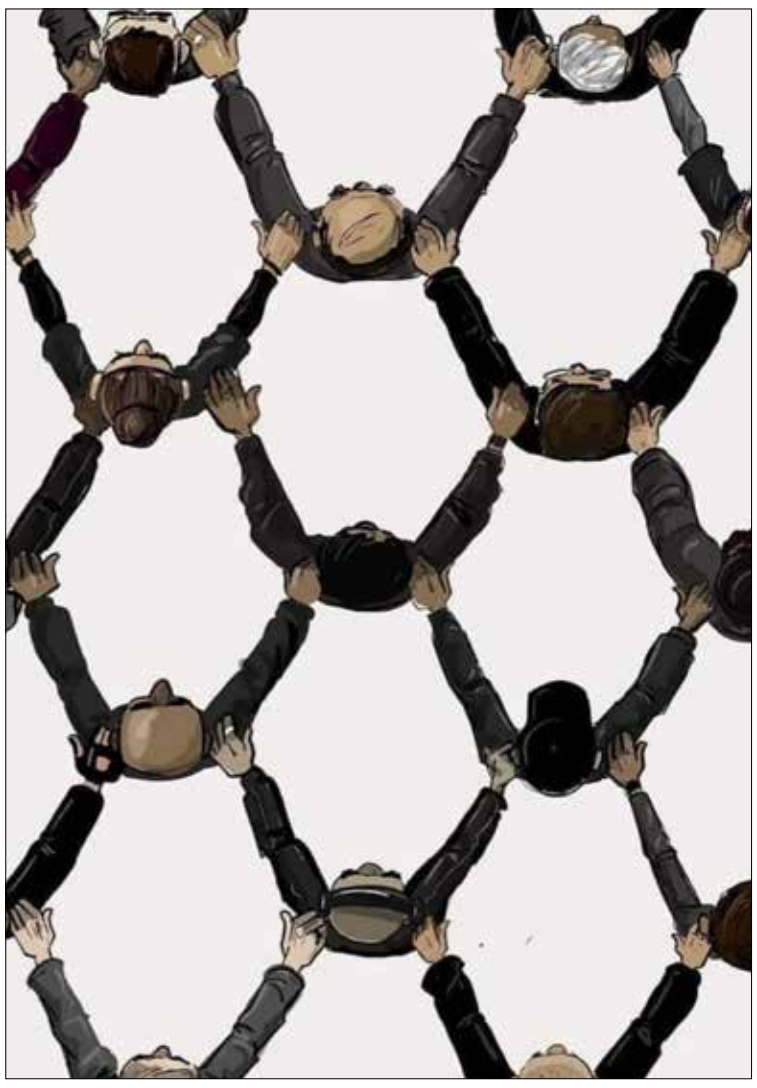
عمل للفنان الفلسطيني غانم الدن

ابتسام مهدي صحافية

الصحافة والأمومة

ما أصعب أن تسعى لضبط إيقاع حياتك المهنية وحياتك الشخصية في هذه الحرب. أن تكوني صحافية، وتكوني أمّاً في نفس الوقت، وتحافظي على الاثنين. كلّ هذا في زمن الحرب وفي وقت النزوح المرير. ثمّة حكايات كثيرة وقصص عديدة عن هذه الأمومة وتلك الصحافة.

مرضتْ ابنتي وأصابها الإعياء الشديد لدرجة فقدانها نصف وزنها، أخبرنا الطبيب أنها تعاني من جرثومة، وتحتاج لتناول أطعمة حلوة. توجهت للسوق للبحث عن حلويات يمكن أن أشتريها لابنتي لتحسين وضعها الصحي، ولكن لم أجد شيئاً يمكنها أن تتناوله، وكل ما وجدته من حلويات في بعض أركان السوق كان سعره مرتفعاً جداً.

هذا حالنا في غزة نفتقد أقل الامكانيات من حيث الأساسيات وهي مكونات الطعام من خضار وفواكه ولحوم، خلال الستة شهور الأولى من الحرب التي تشنها إسرائيل على قطاع غزة. أنا ابتسام مهدي صحافية من مدينة غزّة لاجئة بعد عدّة تنقلات من مدينة دير البلح، أم لطفلة عمرها تسع سنوات وطفل عمره سبع سنوات.

■■■

ما يتوفر في الأسواق هو المعلّبات التي تحتوي على نسبة كبيرة من المواد الحافظة الضارة، لا يوجد خضار وإذا وجدت فالأسعار مرتفعة جداً، ولا تستطيع العائلات شراءها.

بعد بحثٍ في السوق، قررتُ أن أعود إلى المنزل لأتناول أنا وأطفالي وزوجي علبة «تونا»، ولكن حتى من أجل تناول «التونا» بشكل معقول فنحن بحاجة لليمون. اشتريتُ ليمونة واحدة بما يعادل دولارين، سألتني طفلتي ماذا جلبتِ لي من طعام حلو، ابتسمت في وجهها وقلت لها اشتريت لك كيكة. وكنت فعلاً قد اشتريت قطعة كيكة صغيرة جداً، لكن رغم صغرها كان سعرها قرابة أربعة دولارات. قسمتها بين أطفالي: ابنتي وابني، وجلستُ في حيرة من أمري ماذا يمكن أن أعد لها طعاماً حلو المذاق، لا سيما أن كيلو السكر سعره يزيد عن المائة شيكل، وهذا سعر أيضاً مرتفع وخرافي مقارنة بسعره الأصلي قبل الحرب، كما أن تجهيز أي نوع من الحلوى بحاجة لتوفير الحليب، لا يوجد لدي ملعقة حليب واحدة؛ فهو مقطوع من السوق مثل الكثير من السلع الأساسية.

■■■

وفيما كنا نتناول علبة «التونا» التي حصلت عليها عبر طرد غذائي يحتوي على بعض المعلبات من فول وحمص وفاصولياء وبازلاء، سألتني طفلتي متى يمكنك أن تشتري لنا دجاجاً، أيضاً ابتسمت في وجهها ووعدتها بالمحاولة في أقرب فرصة إذا توفر في السوق. وأيضاً هذا أمر بات شبه مستحيل.

مررتُ بتجارب كثيرة خلال تلك الفترة، لم تقف عند توفير الطعام، فلا غاز ولا كهرباء، إذ صرتُ مثل الآخرين نعتمد على الحطب في إعداد الطعام حتى خلال تسخين المعلبات، كذلك لا يوجد لدينا مياه نظيفة لتناولها وهي مشكلة أخرى بالإضافة لمشكلة توفير مياه للاستخدام اليومي.

سأذكر بعضاً مما مررتُ به وهي آخر تجربة قبل لجوئي لمدينة دير البلح، بعد قصف شقتي في منطقة تل الهوا جنوب غرب مدينة غزّة حيث انتقلت لعدة منازل في المدينة بحثاً عن الأمان، ولكن في كل منزل كان يحدث هناك استهداف للمنطقة التي يقع فيها المنزل ويحدث به أضراراً متفاوتة، لأقرر في نهاية المطاف بعد ذلك النزوح لجنوب قطاع غزة.

كانت تلك رحلة مليئة بالمواقف الصعبة حيث تنقلت من منزل إلى منزل، حتى أنني اضطررت مرة للمبيت في المستشفى، إذ نمت أنا وأطفالي على بطانية واحدة ووضعنا فوقنا نحن الثلاثة بطانية ثانية. كانت تلك أول مرة أشعر فيها بالبرد الشديد الذي تسبب في نزول دموعي من شدته ومن خوفي على أطفالي.

لا يوجد لدينا مياه نظيفة لتناولها وهي مشكلة أخرى بالإضافة لمشكلة توفير مياه للاستخدام اليومي

لم أستقر خلال الفترة الماضية بالمطلق لأنتقل بعد اجتياح مدينة خانيونس جنوب قطاع غزة عبر ما يعرف بـ«الممر الأمن» الذي وضعه جيش الاحتلال، حيث مررت بتجربة صعبة خلال ذلك، كانت عبارة عن تنكيل وإهانات ومسبات وإذلال، إلى أن وصلت في مرحلة نزوحي الأولى نحو الجنوب إلى وسط القطاع، وجلستُ في مدينة دير البلح أكمل فيها مرارة اللجوء دون معرفة وقت الرحيل منها وإلى أين.

■■■

خلال تلك الفترة عملت في مجال الصحافة وهي مهنتي الأساسية، ولكن كان عملي لأول مرة محفوفاً بالمخاطر التي يمكن تلمسها في مجال مهنتنا بعدد الزملاء الذين ارتقوا شهداء في الأشهر الأخيرة. حتى وصل الأمر لطردنا من منازل أصدقاء كوننا صحافيين.

نسيتُ أن أقول إن زوجي أيضاً صحافي. لم يكن مرحّباً بنا خاصة بعد أن صار الجيش يتعمد استهداف الصحافيين من أجل إخافتنا ومنعنا من ممارسة مهنتنا. ناهيك عن الصعوبات الجمة التي نواجهها خلال عمليات التغطية والتي منها مثلاً صعوبة توفير الإنترنت، وصعوبة التنقل لإجراء المقابلات، وعدم توفر خطوط الاتصال التي توفر بديلاً لذلك، أيضاً لم يكم سهلاً أن تقنع المواطنين بالتحدث إليك في الكثير من المواقف، بجانب أن المسؤولين خاصة لم يكونوا متوفرين بسبب الخوف من الاستهداف، لذلك لم يكن ثمة مسؤولون يدلون بتصريحات ويعبرون عن مواقف فهناك استهداف لكل شيء. كذلك صعوبة توفير شحن للجولات، ناهيك عن كوني أماً وزوجة وعليها متطلبات زادت وتنوعت خلال هذه الحرب.

ومن تلك اللحظات المريرة التي عشتها خلال الأشهر الماضية، كانت لحظة استشهاد أخي بعد استهداف منزله وسيارته واعتقال والدي لأكثر من شهر. كانت تلك تجربة مريرة خبرتها كما خبرها الآخرون مثلي في غزة. هذه الأمور فطرت قلبي، وغيرت في شخصيتي وحالتي النفسية كثيراً، أصبحت أميل للصمت، وعانيت من عدم القدرة على إنجاز مهامي الصحافية، فمهما كتبنا يظل قلمنا عاجزاً عن التعبير عن حقيقة ما يجري أمام حجم الدمار والاستهداف والخوف الذي نعيشه، ناهيك عن التزامات الحرب التي تنوعت وتغيرت في كل لجوء وغيرت منا الكثير، استنزفنا مالياً ونفسياً وجسدياً حتى أصبحنا أجساداً باهتة ترزح تحت أرواحنا الثقيلة، نتنهد مرارة كل يوم بعدة أشكال.

فداء بركة كاتبة

ماذا تعرفون عن الحرب؟

تقول إحدى جارات خالتي إنها عندما هربت من مخيمات النزوح من رفح، راجعةً مثقلة بأحمال الدهر والأيام والخيبات والحسرة على ما فقدت من ملكها في بلدة الزنة: «كنت أحمل متاعي الثقيل على رأسي كمعدن صلب يدق على خشبة هشة لا حياة لها ولا تنادي، من شدة التعب وثقل ما أحمل، مشيتُ مهرولة في الشارع حتى تزحلقت قدمي في بطن جثة... نعم كما قلت جثة. هذه ليست رواية لأغاثا كريستي التي طالما تحدثت عن عالم الجرائم والقتل في أبشع صور، فأغاثا لا تعلم أن هناك عدواً يتفنن بأسالبيه الأكثر فظاعة في عالم الجرائم والأشد تنكيلاً».

نعم كما روت السيدة، فقدمها تزحلقت في بطن جثة شهيدة خالية التجويف لا أمعاء، لا كبد، لا شيء. كانت السيدة الشهيدة حاملاً، وفي ما يبدو من تجويف بطنها نزع العدو الجنين، ثم جرّف الجثة صوب الشارع. أغمي على السيدة الجارة، وشُلّ لسانها عن الكلام...

وجارتنا الأخرى كانت تفكر قبل نومها في أحلام وأحداث عديدة ستفعلها في الحاضر القريب، تنظر بعين الأمل الحانية نحو طفليها؛ صغيران لم يتجاوز أحدهما الثمانية أشهر، ولد وبنت، استلقت بجانبهما بعد يوم طويل في البحث والتحري عمّا يعجبهما من ثياب في السوق، لتلف بها قطعتي الحلوى الخاصة بها، اشترت ووضعت الثياب بجانبها، ونامت هي وهما على جانب أمل مشرق.

■■■

سأحكي لكم حكاية من حكايات غزّة...

شعرت فداء بألم في رأسها، فقالت لنفسها: سأعدّ كوباً من الشاي مع نبتة خضراء، ميرمية، يساعد في التخلص من هذا الألم».

نهضت وبدأت بالتفكير في تجهيز كوب الشاي. لم تجد السكر ذا السعر المرتفع جداً والشحيح في الأسواق، والميرمية أيضاً مقطوعة هنا، والغاز مقطوع. فكرت أنها لو أعدت الشاي فقط من دونهما (السكر والميرمية) فإنّ عليها أن تتقبل الشاي من دونهما، لكنها ستكون أشعلت النار في الموقد حيث لا حطب «وقيد». فشلت عملية إعدادها للشاي بالكامل. فذهبت من أجل الخلود إلى النوم، وذهبت معها الطائرة وأزيزها ومكثت في رأسها ولم تنم.

نعم، يحدث هذا في الإقليم المنسي: غزة.

انتظروا، فقصة «بائعة الكبريت» حصلت مرة أخرى في غزة مع طفل استشهد جميع أهله بالقصف ولم يبق سواه، ليجده أحد المارة نائماً تحت شاحنة كبيرة وجلده أزرق من شده البرد فيحمله الشخص المار قرب الشاحنة إلى أقرب نقطة طبّية، ثم يعود في اليوم التالي ويسأل الطبيب عنه ليجده قد فارق الحياة.

أيضاً جلس جارنا العجوز النازح على باب خيمته، ودموعه تنهمر، هامساً مع ذاته: أخ يا ولدي... قصف الموت شبابه قبل أن يزهر ويصل إلى الكهولة.

في يوم من هذه الأيام، وقت العشاء وقفت على الشباك رغبة في أن أشتمّ هواء نظيفاً، وأن أتمكن من التقاط إشارة النت، فإذا بانفجار ضخم على بعد خمسمائة متر من منزلنا يستهدف مؤسسة مجتمعية. قوة الانفجار وشدة الهواء المندفع من منطقة سقوط الصاروخ دفعتني من الشباك إلى الداخل قليلاً، وأصبحت السماء حمراء مع دخان كثيف، وزلزل البيت من شدته، وصلت الشظايا إلى الشارع، أول مرة أرى قصفاً مباشراً لحظة وقوعه. تخيّلتُ بيت شعر بشار بن برد قبل أكثر من ألف سنة وهو يقول:

كأنّ مثار النقع فوق رؤوسنا = وأسيافَنا، ليلٌ تهاوى كواكبه

■■■

السنة الماضية، في منتصف ليلة نهاية العام، كنت أجول بين الشوارع والمتنزهات والبحر والمولات... لا للاحتفال برأس السنة فقط، لكن لأشعر بالجو السعيد وأستقبل السنة بحفاوة من باب الأمل وحسن الظن بالله... الآن تشوشت معالم المدينة، كل شيء جميل قبحوه وجرفوه وقصفوه، باتت الشوارع المضاءة أراضي قاحلة لا زرع ولا ماء ولا بشر ولا بيت ولا مطعم... لو استطاعوا أيضاً تخطي القدرة الإلهية بتجريف ماء البحر لما قصروا حقداً على شعبها، وحسداً منهم لنا على جمال غزة.

ذات يوم من أيام الحرب، سمعت بعض الصرخات بعد تناول طعام الإفطار بنصف ساعة فذهبت خُلسة وراء الشباك لأسترق السمع، رأيت بعض الفتيات يصرخن في الشارع ونساء أخريات يمسكن بأطفالهن ويجرين في الشارع حافيات، وكان الشارع مليئاً بالشباب والرجال. الجيران يقفون على الأبواب تسأل: «إيش في؟!» حتى قال أحدهم: «بدهم يقصفو بيوت بالحارة، واطلعوا من البيوت».

من احتجاج في وسط لندن، 30 آذار/مارس 2024 (بنجامين كريمبل/فرانس برس)

لبست ثوب الصلاة وانطلقت مسرعة إلى بيت الجيران حيث أكون أبعد عن المكان المستهدف. نادى علينا رجال الحارة أنا ونساء الحيّ وأطفاله، وطلبوا أن نخرج أيضاً من هذا البيت إلى مكان أبعد بكثير. أسرعنا وصرنا نجري في الشارع إلى أبعد مكان نستطيع الوصول إليه حتى وصلنا عند بيت لأحد أقربائي. انتظرنا نصف ساعة حتى أُطلق الصاروخ... ونمنا من شدة الخوف وحل الهدوء. استيقظنا صباحاً بعد رجوعنا إلى بيتنا الذي تضرر مرة أخرى أكثر، كما دُمرت المنطقة المجاورة في الحارة، ودمر بيت الجيران والبيوت المجاورة وأنا فقدت أعصابي التي كانت وادعة يوماً ما.

في ما يبدو من تجويف بطنها، نزع العدو الجنين، ثم جرّف الجثة صوب الشارع

وفي يوم آخر وعند وقت الغروب عندما رجع أخي من رحلة البحث عن ضالته المفقودة (التوك توك) دخل الباب مُلقياً السلام، وقال: هل هناك أكل بعد يوم كامل من التعب؟ أصابني الفزع عندما رأيته! كان في حالة يرثى لها، وجهه شاحب ومصفرّ ولونه ولون ثيابه أبيض مليء بالغبار كأنه خارج من كيس دقيق؛ فحاولت الاستفهام عمّا جرى! تنهد ثم أجاب قائلاً: «معالم المدينة باتت مشوهة، لن تعرفي دوار السنية ولن تميزيه من دوار بني سهيلا ولا من دوار كراج رفح. لا أسفلت، فالشوارع مجرّفة والبيوت مهدمة محروقة... فقط كثبان رملية أمام بقايا البيوت. وفي الطريق العظام بالية والجماجم خاوية، والجثث متحللة، فمشيت لا أدري أين الطريق؟ حتى وجدت نفسي في مكان سألت أحدهم عن المكان... قال لي: أنت في بلدة بني سهيلا، حيث طائرات الكواد كابتر تطلق النار على المواطنين العزل» وفيما هو يحدثني والدموع تنهمر من عيني خلدت إلى النوم من الغم، ساعة المغرب.

■■■

يوم العيد

في مثل هذا الوقت، السنة الماضية كنت أستيقظ على أصوات أطفال الحي وهم يتراكضون ويلعبون ويلهون وراء عربات الماشية المحملة بالعجول الشراري ويصرخون: «أبو محمد أتى بعجله؛ كبير وسمين، أبو رسمي عجله لونه بني، أبو أحمد جاب بقرة منقطة أبيض وأسود» ويتناوشون ويتجادلون في ما بينهم من وصل قبل الآخر ورأى المشهد قبل الآخر.

جارتنا فضيلة تستيقظ باكراً قبل أذان الفجر لتجهز أدوات الكعك والمعمول الذي عجنته قبل ليلة، ثم تخبزه قبل شروق الشمس، مع صوت شقشقة العصافير: «الله ما أجمل الرائحة».

في الجانب الآخر من الشارع يحضر الجيران مكبرات الصوت فنسمع تكبيرات العيد وتهاليل الحج في كل أنحاء الحارة. لم يعد البيت ولم يعد الجيران موجودين ولم تصدح من نافذته تهاليل العيد. لا عيد هذا الصباح.

ماذا تعرفون عن الحرب؟

عن سيدة تستيقظ مذعورة على صوت القذائف والصواريخ وقلبها مكسور؟

عن طفلٍ يسمع أصوات الانفجارات؛ فيهرول هارباً في اتجاه البيت لعله يجد ملاذاً آمناً؟

عن أسرة فرّت من خيمةٍ إلى خيمة، من مكان إلى مكان أكثر أمناً تاركة شايها الصباحي على موقد النار؟

عن عائلة عادت إلى بيتها المقصوف لا حيطان، لا أبواب، لا شبابيك، فقط شبه أعمدة تجثو على أطرافها لتستظل بها من حر الحرب وبرد ضمير العالم الصامت؟

أم عن شيخ يفتح عينيه على وسعهما تاركاً الدموع تهطل على أودية أنهار الدم حسرة على أشلاء ولده الشاب؟